فلسفة اقبال الروحية

للدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

محمد اقبال رائد من روائد التجديد الدينى فى الشرق الاسلامى ، وعلم من أعلام الفلسفة الاسلامية فى عصرنا هذا · أقام مذهبه الدينى على أساس من التصوف الاسلامى ، بعد أن فسره تفسيرا يتمشى مع نظرية « نيتشه » فى الانسان الاعلى ، ومع نظرية « برجسون » فى « التطور المبدع » ·

وله فوق هذا فلسفة خاصة ، فيها نفحات من مذهب الفيلسوف الالمانى «كانت» وفيها نزوع الى العمل وتغليب على جوانب النظر المحض ، ويبدو ان ما حاوله اقبال فى تاريخ الفكر الدينى الاسلامى شبيه فى بعض الوجوه بما حاوله « كانت » فى تاريخ الفكر الميتافيزيقى العربى · وقد عبر اقبال عن ذلك كله فى سلسلة من المحاضرات ألقاها باللغة الانجليزية سنة ١٩٢٨ ، ونشرها سنة ١٩٣٤ ، بعنوان « تجديد بناء الفكر الدينى فى الاسلام » ·

رأى اقبال ان الرجل الاوربى الحديث ، قد طغت عليه نتائج نشاطه العقلى فلم يعد يعيش بروحه ويكاد لا يحس حياة الباطن فهو فى مجال الفكر يعيش فى صراع مع نفسه ، وفى مجال السياسة والاقتصاد يعيش فى نزاع مع غيره ، وهو يجد نفسه فى أغلب الاحيان عاجزا عن ضبط أنانيته وشهواته وتكالبه على المادة تكالبا لا يعقبه غير الحسرة والشقاء ، وليست الحال فى الشرق بأحسن منها فى الغرب ، فقد فشلت صناعة التعليم الدينى ، وأخفقت طرق التصوف الجارية على أساليب القرون الوسطى ، كانت هذه الطرق فى الماضى هى التى تنمى عند الرجل العادى، قوة الحياة الداخلية ، وهى التى تعده للمشاركة فى سير التاريخ ، ولكنها انقلبت الى عقيدة قوامها التواكل والجمود وجعلته قانعا بجهله وقصوره الروحى ·

ولاحظ محمد اقبال ان الفكر الدينى فى الاسلام قد ركدت ريحه أثناء القرون الخمسة المنقضية ، ولا حظ انقضاء الزمن الذى كان فيه الفكر الاوربى يتلقى وحيه من العالم الاسلامى ، كما لاحظ السرعة الهائلة التى يتحرك بها المسلمون نحو الغرب ، ولكنه لم يجد فى ذلك ما يستحق اللوم، أو يدعو الى الخوف ، فعنده ان الثقافة الاوربية فى جانبها العقلى · انما هى امتداد لبعض المراحل المهمة فى ثقافة الاسلام ·

وانما الذى يخشاه محمد اقبال هو ان يجد المسلمون فى ظاهر الثقافة الاوربية البراق ما يجذبهم نحوه فربما وقفوا عنده دون ان يسعوا الى النفاذ

الى جوهرها الصحيح ، فلا عجب اذن ان تطلب الاجيال الناشئة فى الاسلام فى بلاد آسيا وأفريقيا توجيها جديدا لعقائدها ، وهذا هو الذى دعا محمد اقبال الى القاء المحاضرات التى أشرت اليها محاولا ان يجدد بناء العقيدة الاسلامية دون ان يغفل تقاليد الاسلام الفلسفية حرصا على الانتفاع بالتطورات الحديثة فى مختلف أبواب المعرفة الانسانية .

والمسائل العامة التى عرض لها محمد اقبال هى الصلة بين الفلسفة والدين وقد ناقشها فى محاضراته مناقشة فلسفية مؤملا من وراء ذلك أن يقدم للناس ما يعينهم على فهم معنى الدين الاسلامى باعتباره رسالة الى الانسانية .

ويرى محمد اقبال ان الدين ليس أمرا جزئيا ، وليس فكرا فحسب ، ولا شعورا فحسب ، ولا عملا فحسب ، انما هو تعبير عن الانسان كله ،وليس من سبب يدعو الى الظن بأن الفكر والحدس أمران متعارضان بل أصلهما واحد ، وكل منهما يكمل الآخر ، أحدهما يتناول الحقيقة مجزأة ،والآخر يتناولها فى جملتها ، وأحدهما ينظر الى الأزلى الخالد الذى تخطى حدود الزمان ، والثانى ينظر الى الحقيقة فى جانبها الزمانى المعين ، والحدس كما يقول «برجسون» نوع من العقل الراقى ، ونستطيع أن نلاحظ هنا وجه المشابهه بين فكر محمد اقبال ، وفكر محمد عبده .

ويرى محمد اقبال ان الانسانية بحاجة اليوم الى أمور ثلاثة : (١) تأويل الكون تأويلا روحيا (٢) تحرير الفرد تحريرا اجتماعيا (٣) اقامة مبادىء أساسية ذات مدلول شامل بحيث توجه تطور المجتمع على أساس روحى .

ولا شك فى ان أوربا الحديثة قد أقامت مذاهب مثالية على هذه الاسس، ولكن التجربة تدلنا على ان الحقيقة المنكشفة بواسطة العقل المحض عاجزة عن أن تثير فى القلوب من الحرارة ما يثير الاعتقاد الحى ، والايمان الشخصى، وذلك هو السبب فى أن الفكر المحض لم يؤثر فى الناس الا أثرا قليلا فى حين ان الدين استطاع أن ينقل من حال الى حال مجتمعات وأمما بأسرها .

ويرى محمد اقبال ان مثالية أوربا لم تكن قط من العوامل الحية المؤثرة فى حياتها ، ونتج عن ذلك وجود ذوات ملتوية ، وشخصيات مريضة ، تبحث عن نفسها فى ديمقراطيات غير متسامحة وكل مهمتها ان تستغل الفقير لمصلحة الغنى « وان أوربا اليوم أكبر عقبة فى سبيل رقى الانسان رقيا أخلاقيا » .

ومحمد اقبال يناشد المسلمين كما ناشدهم محمد عبده من قبل فيدعوهم الى ان يرجعوا الى دينهم ليتأملوه من جديد على ضوء الفكر الحديث وليحاولوا ان يقيموا حياتهم الاجتماعية على هدى تعاليمهم الاساسية، والغاية القصوى لتلك التعاليم عند اقبال هى تحقيق الديمقراطية الروحية .

تلك لمحة من فلسفة اقبال ، وهى فلسفة مثالية عملية معا وهى تسمو الى الخير والحق والكمال .